السنة السابعة والخمسون — ايار - حزيران ١٩٦٣

# اليازجي والقرآن

## في مجمع البحرين

بقلم ظافر القاسمي

القرآن الكريم ، ليس شعرًا ، وليس نثرًا ، وانما هو قرآن . كذلك قال الدكتور طه حسين في احدى أماليه . وكذلك قال غيره من أئمة اللغة والبيان ، في القديم . وما وقع لكاتب ، على مدى العصور ، أن اقتبس منه بعض آياته ، الا ورأيتها تقفز وحدها من بين السطور ، تعلن عن نفسها ، أنها لا تشبه ما قبلها ، ولا ما بعدها . وتبدو كاللؤلؤة الفريدة ، تبهر الأعين ، وتحلو في السمع ، وترن في الآذان ، وتدخل الى القلب . ولعل أبا سفيان ، يوم استرق السمع من الرسول الاعظم ، وهو في غار حرّاء ، يرتل آيات الله البينات ، قد أعجب قبل اسلامه يوم الفتح عن شعور كل انسان ، يوم سئل عن القرآن فقال : ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان له لصولة في القلوب ليست بصولة مبطل [1].

وما زال الكتّاب والمنشئون ، منذ أن أخذت صناعة الكتابة طريقها في

١) وفي رواية ان قائل هذه الجملة هو الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد .

الترسل، يعمدون الى الاستشهاد ببعض الآي، إما لتأكيد حجتهم، وتقوية بيّنتهم، واما لتزيين مقالهم، وترغيب القارئ في نتاجهم، واما للتبرك بمحكم التنزيل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولقد نشأ علم البلاغة بعد ان نزل القرآن الكريم، ورأى أئمة هذا العلم تهالك الكتّاب والمنشئين على العبّ من هذا المحيط الذي لا ينضب، فافردوا في كتبهم بحثاً خاصاً سموه «الاقتباس» وعنوا به استعانة الكاتب بآيات القرآن الكريم فيما يكتب، وحصروا هذه التسمية بهذا المسمى. وأخذنا منذ طفولتنا نرى الكاتب المبدع، هو الذي يحسن الاقتباس، ويعرف مواضعه، ويأتي بالآية الكريمة، في السياق الذي يلائمها. وما زلت اذكر ان مشايخنا الاولين، رحمهم الله، كم شجعونا على حفظ بعض السُّور، وعلى تفهم معانيها، وكم رددوا على مسامعنا أنها الثروة الادبية واللغوية الكبرى، التي لا تفنى آثارها أبد الدهر، والتي تغني كل متأدب ناشئ، فيجد فيها ما يستعين أن يجده في أي مصدر أدبي أو لغوي آخر. واعتقد أن هذا السبب نفسه، من بين الاسباب التي حملت ادارة الازهر على اشتراط حفظ القرآن الكريم بكامله لمن اراد الانتساب اليه. فهو عدة للفقيه وللمفسر والمحدث والاصولي والقاضي والمفتي والاستاذ. وهو كذلك عدة، أية عدة، للأديب والكاتب. ولعل أصدق مثال معاصر على صحة هذا الرأي وصوابه، أزهريان عظيمان، لم يكونا في سلك الفقهاء، وانما كانا في سلك الادباء، هما طه حسين وأحمد حسن الزيات. اقرأ اذا شئت، ما كتبه طه حسين، ولا سيما على هامش السيرة والفتنة الكبرى، واقرأ مجموعة مقالات الزيات في الرسالة، وانظر كم كان أثر القرآن الكريم عظيماً في اسلوب كل منهما، وكم كان الاقتباس واضحاً في ترسلهما.

وقد ظهرت على كتاب لعلم من أعلام العربية في القرن التاسع عشر، حمصيّ الاصل، لبناني النشأة، عيسوي النحلة (على حد قوله في مقدمته)، هو الشيخ ناصيف اليازجي. وأما كتابه فهو (مجمع البحرين).

أراد اليازجي ناصيف، ان يحذو حذو الحريري والبديع، في المقامات، فوضع مجمع البحرين، وأسند الاحاديث فيه الى سهيل بن عباد..

ولست أريد أن أحدثك اليوم عما ترك هذا الكتاب في نفسي من آثار

عميقة ، ومن مشاعر مضطرمة . وما زخر به من فنون البلاغة ، وضروب الفصاحة ، وفرائد الشواهد ، والامثلة السائرة ، وروائع الحكمة ، وغير ذلك مما لا تحيط به مقالات . وانما أريد أن أدلك على بعض المواضع ، التي زيّن فيها اليازجي كتابه بالاقتباس ، فكان حلية أتقن نظمها ، وأجاد رصفها ، وأبدع حبكها ، فاذا هي فتنة للناظرين .

وقبل أن أسوق اليك بعض هذه النماذج ، لا بد لي من أن أشير الى أمور ، بعضها أملتْهُ الملاحظة ، وبعضها فرضه الاستنتاج ، وبعضها تدعو اليه طبيعة البحث :

فأما أولها فهو أنني أكاد أجزم أن اليازجي قد حفظ معظم القرآن الكريم ، ان لم يكن قد حفظه كله ، لأن هذه القدرة على الاقتباس ، لم تكن لتتسنى لرجل شدا شيئاً من سوره ، او ألمّ بها إلمامة المطلع السطحي .

واما ثانيها فهو انه قد جاء بالآية حيناً دون تبديل فيها أو تغيير ، ودون تقديم أو تأخير ، وجاء بها حيناً آخر مع شيء يسير من التعديل ، لم يذهب ببهائها ، ولم يُفقدها شيئاً من رُوائها ، لانه كان أديباً مفرط الذوق ، يتقن التصرف في الالفاظ ، فلا يدع فيها مكاناً للقلق ولا للاضطراب ، وروائع الاسلوب ، فلا يسمح فيه بشيء من الاسفاف او التبذّل .

وأما ثالثها فهو أن اليازجي لم يقتبس آية واحدة مرتين اثنتين في مقاماته كلها ، وقد بلغت ستين مقامة ، في نحو ثلاثمئة وخمسين صفحة ، من القطع الكبير . وهذا دليل على أنه قد مارس دراسة القرآن الكريم وحفظه ، فانتقى من فرائد كنوزه ما دعته اليه الحاجة ، دون تكرار ولا اعادة .

وأما رابعها فهو أنه قد أحسن الاقتباس في جميع المواضع ، فما من مرة اقتبس آية من الآيات الا وشعرت بأنها خير ما يمكن ان يجري مع سياق الموضوع الذي يعالجه . ولا أبالغ اذا قلت : ان مثل هذه الاجادة ، لا تقتضي حفظاً للقرآن الكريم على أنه المثل الاعلى للبلاغة في أدبنا العربي ، ليس غير ، بل تقتضي أيضاً معرفة عميقة ، ودراية تامة بأسباب النزول .

وأما خامسها ، فهو أني لم أجد آية محرفة أو مبدلة ، بحيث ينبو الذوق عن قراءتها . ولقد أشرت الى أنه ربما قدم وأخر ، في بعض الفاظ الآية ، وربما زاد عليها أو نقص منها ، لضرورة السجع ، الذي التزمه في جميع المقامات .

وأما سادسها وآخرها ، فهو وان لم يكن ذا صلة وثقى بالاقتباس ، وانما هو ذو صلة بالتعليل الذي أراد لإحسان اليازجي في الاقتباس . ذلك هو ثقافته الاسلامية الواسعة ، ومعرفته بالالفاظ الاصطلاحية الدقيقة ، وعلمه بالمسائل الخلافية الفقهية ، التي لا يمكن أن يُرزقها الا من لازم كتب أئمة المسلمين ، وأدام صحبتها ، وعجم عودها ، وخبر ما فيها ، على تعدّدها واختلافها وسعتها . وهذا العلم بالثقافة الاسلامية ، هو بالبداهة فرع عن المصدر الاول للشريعة ، وهو القرآن الكريم.

وليس في هذا شيء من العجب ، وانما العجب العجاب هو اعلان المؤلف في خاتمة كتابه ، أنه لم يأخذ هذه العلوم كلها عن أحد من الاساتذة ، وانما اكتسبها بالجهد الشخصي المحض ، فقال[1] ( ص٣٢٥ ):

«قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم ، اذ لم أقف على أستاذ قط في علم من العلوم ، وانما تلقفت بجهد المطالعة ، وأدركت ما أدركته بتكرار المراجعة. فان أصبت فرمية من غير رام ، وان أخطأت فلي معذرة عند الكرام. . . ».

ولعمري ان ناصيف اليازجي ، قد ضرب في هذا أروع مثال للعصامية العلمية ، التي تقوم على الدأب والجد ، والسهر والكد ، فتبني صرحاً عالياً من صروح العلم ، وتقيم مجداً خالداً من أمجاد الثقافة ، التي لم يكن لها من سبيل الا التعلم الذاتي.

ولست استقصي اليوم كل ما في الكتاب من الاقتباس ، لكن حسبي من القلادة ما أحاط بالجيد . قال اليازجي :

— فأخذ الشيخ القلق ، وقال أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ — ص١٢

— فقلت : إن الشيخ قد أَتَى ٱللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ — ص ٢٣ .

— ما تقول في دعوى هذه الجارية ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ؟ — ص ٣١.

— قالوا : قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ، فقد أَحْسَنْتَ وَمَا جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ — ص ٣٣ .

— قلت : ليس معي الا دينار واحد فاقتسماه ، والا فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ من رزق الله — ص ٣٤ .

— فان تَمَسَّكْتَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى ، وَإِلَّا فَٱللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى — ص ٣٩ .

(١) ارقام الصفحات المشار اليها هي من طبعة صادر عام ١٩٦١ — بيروت.

— قد فرضت من مالي نصابا ، فخذه وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا — ص ٤٤ .

— فلما آنس الندى — وَوَجَدَ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى — ص ٥٨ .

— تبطنا السُّرَى في ليلة حالكة الأديم ، وقد قَدَّرْنَا ٱلْقَمَرَ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ — ص ٦٧ .

— بتنا نجصّ في الرباط عند القوم ، وانا لم تَأْخُذْنِي سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ — ص ٧٣ .

— واذا رجل قد تخلل اليه الأسرى ، كَأَنَّهُ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَى ، وقال : هيهات لَا تُغْنِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى — ص ٧٤ .

— قال : يا أمة الله صبرا ، فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا — ص ١٠٠ .

— وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، ولا يستفزك الدهر فرحا او ترحا — ص ١٠٥ .

— فجدوا في جدد الفجر ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ، على نوائب الدهر — ص ١١٦ .

— أنت في ضيافة الوالد والولد ، ما دمت حِلًّا بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ — ص ١٣٤ .

— وليعتبر كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، وَيَذْكُرْ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ، واعلموا أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ نَذِيرًا ، وَأَقَامَنِي بَيْنَكُمْ سِرَاجًا مُنِيرًا ، لِأُذَكِّرَكُمْ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا — ص ١٤٨ .

— واذا شيخ أطول من شهر الصوم ، قد قام في صدر القوم ، وهو يُشِيمُ تَارَةً بِالْخَسِّ ، وَطَوْرًا بِالْجَوَارِي ٱلْكُنَّسِ ، ويلهج بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ — ص ١٧٠ .

— شهد الله أنك لقطب السماء ، فانظر لنا واتق الله إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ — ص ١٧٣ .

— ولا تَحْسَبْ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ يُتْرَكُ سُدًى ، وَلَنْ يُحَاسَبَ غَدًا ، وَٱلسَّلَامُ عَلَى مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَى — ص ١٩٤ .

— فلما فرغ منحوه من الشياه ما تيسر ، وقالوا : صَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ — ص ٢٣٩ .

— فَنَقَضْنَا غَزْلَنَا أَنْكَاثًا ، وعدنا فاقنا ثلاثا — ص ٢٥٣ .

— وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ، لا يعرف حق التاج والحرزة — ص ٢٦١ .

— واذا قوم من كرام الوجود ، يسيماهم فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ،

وعليهم لوائح الجودة والجود، قد اقبلوا بوجوه ناضرة، إلى ربها ناظرة، وهم يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لما تقدم وما تأخر من ذنبهم — ص٢٧٦

وبعد فهذه نماذج من اقتباس اليازجي في مجمع البحرين، لن تستطيع ان تدرك سحرها وروعتها، ما لم تقرأها في مواضعها من الكتاب، وتعرف ما قبلها وما بعدها. وهي هنا على اقتضابها وابتسارها، حلوة الصور، بديعة التركيب، محكمة السبك، أخاذة الاسلوب. ولن يغنيك هذا كله عن الرجوع الى الأصل، وتذوّق ما فيه من جمال القصة، وسلاسة وقائعها، لتنعم بمحاسن الاقتباس فيها.

ذكر اليازجي أنه فرغ من تبييض كتابه في شهر نيسان سنة ألف وثماني مئة وخمس وخمسين، أي قبل مئة وثمان من السنين، وهو العصر الذي اعتادت كتب تاريخ الادب العربي أن تسميه نهاية عصر الانحطاط، ومبدأ انبعاث الأدب العربي الحديث. ولعلي أوفق في حديث آخر الى كشف العناصر التي اعتمد عليها هذا الانبعاث، وأهمها، كما هو واضح من هذا الكتاب، الاقتباس من القرآن الكريم والحديث، وتضمين أمثال العرب، وروائع الشعر القديم، والاستشهاد بكلام البلغاء. فبهذه العناصر تقوى الكلمة الادبية الحقة، وبدونها تبقى الكتابة والانشاء كالهيكل العظمي لا حياة فيه ولا لحم ولا دم.

ويقتضيني الوفاء أن أذكر هنا أستاذين كبيرين شقيقين، أخذت العلم عنهما، ثم نعمت بصداقتهما وعطفهما، كانا يحفظان الكثير من القرآن الكريم، فحفلت كتبهما بالاقتباس منه، وما أذكر أنني جالستهما مرة الا ورأيت الاستشهاد بآياته اقرب اليهما من طرف الثمام، فكانت كتبهما مصدراً من مصادر العلم، كما كانت طرفة من طرائف الأدب، وكانت مجالسهما تفيض بالآي والحديث والشعر والنثر، وتزخر بالفوائد والفرائد، وأنا في كثير من معرفتي عيال عليهما، ومنتسب اليهما، واني لأجرّ ذيل الشبه بهذا السند. كانا نادرتي زمانهما حقاً، وهيهات أن تلد الأمهات مثلهما. انهما فارس الخوري وفائز الخوري. واين من يشبههما من ابناء هذا الزمان؟

فهل للمسؤولين عن شؤون التعليم في بلاد العرب أن يذكروا ما نسوا، وأن يولوا كتاب الله المقام الاول في تنشئة الملكة الادبية واللغوية؟

ليل ٣١ اذار ١٩٦٣ نزيل بيروت

ظافر القاسمي نقيب المحامين